

بسم الله الرحمن الرحيم

الفقيه الكبير العارف بالله الشيخ عبد الغني النابلسي

للأستاذ محمد زاهد أبو غدة

حدث في الرابع والعشرين من شعبان من عام 1143 هجرية وفاة إمام الشام الفقيه الكبير عبد الغني النابلسي الحنفي ، عن 93 سنة ، والشيخ عبد الغني النابلسي هو عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني بن إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم المعروف بالنابلسي الحنفي الدمشقي النقشبendi القادي ، إمام الشام وكبير المتصوفة في عصره والفقيه الكبير والمؤلف الغزير والشاعر الناظم الحرير.

وأسرة الشيخ النابلسي أسرة دمشقية عريقة استوطنت دمشق منذ أجيال ، وتوارثت العلم كابرًا عن كابر، فجده إسماعيل كان شيخ مشايخ الشام وكبارها وعالمها ومرجعها، وجده عبد الغني المتوفى سنة 1032 كان يدرس الفقه في جامع الدرويشية ، ووالده إسماعيل المولود سنة 1017 والمتوفى سنة 1062 كان أفضل أهل وقته في الفقه وأعرفهم وصنف كتاباً كثيرة أجلها وأحکمها كتابه الأحكام شرح الدرر في 12 مجلداً . ويعد أصل الأسرة إلى أسرة علمية عريقة هي أسرةبني قدامة المقدسية ، وجاءها اسم النابلسي حين أطلق على جده الرابع بسبب سكناه في نابلس قبل أن يستوطن دمشق بعدها.

ولد الشيخ النابلسي سنة 1050 هجرية في دمشق ، ووالدته زينب بنت الشيخ محمد الويكي ، وكان من التجارين مع الهند وتوفي فيها، وكان والد النابلسي قد سافر إلى مقر الخلافة العثمانية في الأناضول ، وأمه حامل به في دمشق ، فبشرها رجل صالح أن حملها ولد ، وقال لها : سمّيه عبد الغني ، وولد النابلسي قبل عودة والده إلى دمشق . وكان والده قد شغله بقراءة القرآن ثم بطلب العلم وحضور مجالسه ، فحضر دروس مصطلح الحديث لنجم الدين الغزي ، المتوفى سنة 1061، ودخل في عموم إجازاته ، وتوفي والده في سنة 1062 فلم يغير النائم من طلبه للعلم ، واهتمت به والدته التي توفيت سنة 1104 رحمها الله ، وكانت شديدة الحنون عليه ، وأشار إلى ذلك في أحد داعياً لها فقال :

وإن لي أماً فكن عوناً لها ... تحنو عليٍّ حيث ما لي من أب

وتبع النابلسي التحصيل بعد وفاة والده فقرأ الفقه وأصوله على أستاذه الشيخ أحمد بن محمد القلعي الحنفي ،

والنحو والمعاني والتبيّن والمصرف على الشّيخ المعمّر محمود الكردي نزيل دمشق ، والمُتوفى سنة 1074 ، وأخذ الحديث ومصطلحه على مقتني الحنابلة بدمشق الشّيخ المحدث محمد بن عبد الباقي الحنبلي البعلبي الدمشقي المولود سنة 1044 والمُتوفى سنة 1126 ، وقرأ أيضاً وأخذ على الشّيخ الصالح الورع محمد بن أحمد الأسطواني ، المُتوفى سنة 1072 درس على الشّيخ إبراهيم بن منصور الفتال المُتوفى سنة 1098 ، وغيرهم من علماء الشام في تلك الأيام .

ظهرت على الشّيخ النابلسي معاالم النبوغ و التفوق منذ يفاعته ، فقد رثى أباه وهو في الثانية عشرة من عمره ، وابتدا التدريس في الجامع الأموي وهو في العشرين من عمره ، فدرّس الجامع الصغير والأربعين النووية والأذكار للنبوغ ، وكلها في الحديث كما نرى ، وفي سن الخامسة والعشرين نظم بديعيته التي سماها " نفحات الأزهار على نسمات الأسحار في مدح النبي المختار" ، وهي تشمل كافة أنواع البديع اللغوي في حلة مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ولجودتها وسعة موضوعاتها استبعد بعض أهل الأدب والعلم أن تكون من نظمه ، فاقترحوا عليه أن يشرحها ، فشرحها سنة 1079 في مدة شهر شرحاً لطيفاً في مجلد ، فبان فضله لكل ذي عينين .
وسلك الشّيخ عبد الغني النابلسي طريق التصوف ، فانتسب للطريقة القادرية سنة 1075 ، والنقبندية سنة 1087 ، وأقبل على مطالعة كتب الشّيخ محي الدين بن العربي وكثّب من نهجه من الصوفية مثل ابن سبعين ، عبد الحق بن إبراهيم ، المولود بالأندلس سنة 613 ، والمُتوفى سنة 669 ، والعريف التلماسي ، سليمان بن علي ، المولود في المغرب سنة 610 والمُتوفى بدمشق سنة 690 ، وكان النابلسي يقرئ في الجامع الأموي كتاب " الفصوص " لابن العربي .

ويبدو أن الشّيخ النابلسي دخل في أزمة فكرية عاتية بسبب بعض الخلافيات ، دامت معه سبع سنوات من سنة 1091 هجرية إلى سنة 1098 ، اعتزل فيها الناس ، وأهمل الاعتناء بنفسه ، وهو أمر أشبه بما نتعرف عليه اليوم بالاكتئاب ، إذ يقول معاصره محمد أمين المُحنّي في كتابه " خلاصة الأثر في تراجم أعيان القرن الحادي عشر": إنه صار له في أول أمره أحوال غريبة وأطوار عجيبة ، وبقي في داره بقرب الجامع الأموي في سوق عنبر مدة سبع سنوات لم يخرج منها، وبقي في حالة عجيبة ، وصارت تعتريه السوداوية في أوقاته ، وصار يهجو الناس بشعره ، وقام عليه أهل دمشق ، حتى إنه هاجهم وتكلم بما فعلوه معه ، ولعل من ذلك ما أورده له الطبيب صلاح الدين القاسمي ، أخو جمال الدين القاسمي ، في مقالة في مجلة المقتبس الدمشقية:

يا من تكلم علينا بالذى فيه ... وقعت فى كف ضراغم وفي فيه

دُمْ في ظنونك مفتونا فسوف ترى ... من الذي منه قُبَح الفعل يُرديه
ولا نقل أي جاه للضعف يُرى ... فإن للبيت ربا سوف يحميه
يا مستبيحين أعراضًا محرمة ... بسوء ظن وتلبيس وتمويله
أهكذا ملة الإسلام تأمركم؟ ... أم قد سلکتم عن الإسلام في تيه؟
تبأ لكم ولمن قد عاد يتبعكم ... والعبد مولاه في الأعداء يكيفه

ثم أنجاه الله من تلك الأزمة الممتدة بفضل توجهه إلى كتاب الله الكريم والتأمل في معانيه وحكمه الظاهرة والباطنة ، فتحولت العزلة إلى خلوة وخرج منها بعد أن نظم على قافية التاء كتابه في التفسير الذي أسماه "بواطن القرآن ومواطن الفرقان" ، ووصل فيه إلى سورة براءة ، في قرابة 5000 بيت ، وعاد للتعليم والتدريس ، وشرع في إلقاء الدروس في الجامع الأموي وغيره من مساجد دمشق ، ودرس الأربعين النووية ثم الأذكار النووية وغيرها .
ومما يلفت النظر أنه { رحمه الله } قد ألف في هذه المرحلة رسالة :

"إيضاح المقصود من معنى وحدة الوجود" ، وألفها في مجلسين في شعبان سنة 1091 ، كما هو مذكور في مخطوطتها المحفوظة بجامعة الملك سعود بالرياض ، والبالغة 19 صفحة ، ولعله ألفها قبل اعتزاله الناس ، ولكن المؤلف الأهم الذي يتعلق بهذه المرحلة هو كتابه في الفقه الحنفي الذي أسماه "رشحات الأقلام شرح كفاية الغلام" ، وألفه سنة 1095 ، وهو شرح لمنظومته هو في الفقه الحنفي ، وهو ما يلقي ظللاً من الشك على ما أورده المحبّي عن اعتزاله الناس ومدته وشنته . و كنت قد ذكرت في ترجمة الإمام المناوي تباعاً بين شخصيته الصوفية وشخصيته العلمية ، ويبرز هذا كذلك في الشيخ النابليسي ، حيث يذكر في إجازة صوفية أعطاها لأحد أقرب تلاميذه ، أنه تلقى الطريقة النقشبندية من طريقين : من طريق الباطن ومن طريق الظاهر ، فأما طريق الباطن وهو طريق الروحانية فقد اتصل عهداً ومباعتنا واقتداً واقعة رأيناها ومطارحة روحانية وجذناها من روحانية الإمام الجليل والشيخ الكامل صاحب التكميل الخوجة علاء الدين عطّار قدس الله روحه ونور ضريحه . وقد خلف الشيخ النابليسي آثاراً لطيفة حول ما قام به من رحلات ، وكان أول أسفاره رحلة إلى بلاد الروم في شبابه سنة 1075 ، ولم يؤلف حول هذه الرحلة كتاباً ، وإن كان قد أشار إليها في معرض حديثه عن شيخه النقشبendi الشيخ عبد الرزاق بن شرف الدين الكيلاني الحموي الذي التقى به في هذه الرحلة ، وأخذ عنه الطريقة . وبعد خروجه من العزلة أو الخلوة ، قام النابليسي في سنة 1100 برحلة إلى بعلبك والبقاع ، وكتب فيها كتاباً أسماه "حلة الذهب الإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز" ، ثم رحل في السنة التالية إلى القدس ودون رحلته في كتاب أسماه "الحضررة الأنثية في الرحلة القدسية" ، وفي سنة 1105 قام بأطول رحلاته التي شملت سوريا ولبنان

ومصر ومنها إلى الحجاز حيث أدى فريضة الحج ، واستغرقت قرابة 13 شهراً ، ودون ذكرياته عن الرحلة في كتاب أسماه " الحقائق والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والجاز" ، وفي سنة 1112 قام برحالة إلى طرابلس الشام وكتب عنها كتاب " التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية "

وهذه الكتب فريدة في طبيعتها، فهي ليست على قاعدة كتب الرحلات الجغرافية ، وإن كانت تصف وصفاً انتقائياً ومتفاوتاً بعض المدن والمعالم والأطلال التي مر بها النابلي ، بل هي أقرب إلى كتب الأدب والسير الذاتية ، وتصف كثيراً من جوانب الحياة العلمية والأدبية والاجتماعية في المناطق التي مر أو نزل بها النابلي ، بل وتمناحنا في طياتها بعض تفاصيل الحياة العائلية والشخصية للشيخ النابلي وأسرته ، مما لا نجد له في مكان آخر، وتتبين لها فيها شخصية الشيخ النابلي وطريقة حياته على نمط كان معروفاً ملوفاً في دمشق الشام إلى عهد قريب ، فهو مولع بالطبيعة والنوهات ، يجمع بين الترويج في " السيران " والدرس والمذكرة مع الأقران ، في علم متين وتوجيه رصين ، وقرب من العامة ، وصحبة لخاصة ، يتمتع باحترام الجميع وتبجيلهم ، وهو مرجعهم الفرد وكلمة بينهم لا تُرَد . كان الشيخ النابلي سيّال القلم غزير التأليف ، بلغ عدد مؤلفاته ما يزيد على 330 مؤلفاً ، ما بين كتاب ذي مجلدات أو رسالة في صفحات ، وأود أن أشير إلى أن استعراض تواريخ تأليفها يظهر أن قدرًا كبيراً منها قد صنفه الشيخ في كهولته ، وبضميق المقام عن تعدادها بلة استعراضها، ولكنني أتناول بعض ما أراه مناسباً منها لتجليّة جوانب شخصية هذا الإمام الكبير، والعالم الجليل ، وتعدد معارفه وسعة علومه ومن أول كتبه وأشهرها بين العامة كتاب " تعطير الأنام في تعبير المنام" ، فقد ألفه أوائل عام 1069 ، ورتبه على حروف المعجم ، على الحرف الأول من الكلمة ، وقدم له بمقدمة في علم التعبير، وشروط الخوض فيه ، وأخلاق المعبرين ، وقواعد التعبير، وما ورد في القرآن والآثار من ذلك . وهناك كتاب " يوانع الرطب في بدائع الخطب" الذي ألفه سنة 1085 ، وهو كتاب يتضمن 51 خطبة تشمل أسابيع السنة كلها، أعدها - رحمه الله - لتكون مرجعاً لخطباء الجماع ، وكثير منها لا يزال غضن الكلام يانع الجنى ، ويدل تأليفه لها على شخصية إصلاحية ذات نظرية عملية شمولية ، ومنها كتابه " مناجاة الحكيم ومناغاة القديم" ، وهو كتاب غير ملوف يتضمن نجوى بين النابلي وبين الله عزوجل ، يتبع فيها استحضاره الدائم لعظمة وغنى الخالق وضعف وفقر المخلوق. ومنها كتابه إيضاح الدلالات في سماع الآلات ، الذي ألفه سنة 1088 والذي يرى فيه بعد مقدمة أصولية فقهية طويلة إباحة السماع على طريقة الصوفية ، وكيف لا يرى الشيخ إباحة السماع وجُلُّ قصائده في مدح النبي صلى الله عليه وسلم مما ألفه لهذه المجالس وكثير منها يُتَعَنِّي به إلى يومنا هذا. ومنها رسالته " إيضاح المقصود من معنى وحدة الوجود" ، وتناول فيها هذه القضية الشائكة بتخريج فقيهي فحواء أن القائلين بمصطلح وحدة الوجود ما قصدوا إلا أن الله عزوجل خالق الأشياء وموجدها ، ولو لا ما كان لها وجود ، وهو تخلص لطيف لو طاوعته عبارات القائلين بذلك ، لما كانت فتنـة ، ومنها كتاب " كنز الحق المبين في أحاديث

سيد المرسلين " ، والذي صنفه سنة 1097 ، وهو اختصار لكتاب " كنز الحقائق في حديث خير الخلق " والذي صنفه الإمام عبد الرؤوف المناوي ، والذي ضم 10.000 حديث ، فاختصرها النابلسي إلى 3830 حديث منها كتابه " الصلح بين الاخوان في حكم الدخان "، ذلك أن تدخين التبغ انتشر في تلك الفترة ، وانقسم العلماء بين تحريمته وتحليله فكتب النابلسي رسالته في حكمه ، وكان هذا طبعاً قبل اكتشاف أضراره الشديدة على الصحة . بل صنف رحمة الله كتاباً في الزراعة وهو مثال لاتساع موضوعات مصنفاته ومثال من طرف آخر للمختصرات الشائعة في تلك العصور ، وأصل الكتاب : " جامع فرائد الملاحة ، في جوامع فوائد الفلاحة " ، الذي ألفه الرضي الغزي ، محمد بن محمد المولود بدمشق سنة 862 والمتوفى بها سنة 935 ، وسمى النابلسي مختصره " علم الملاحة في علم الفلاحة ".

ولعل من آخر ما كتبه النابلسي أرجوزة في خلفاء بني عثمان ، نظمها بعد ربيع الأول من عام 1143 ، وهي بمثابة ذيل على أرجوزة " تحفة الظرفاء " التي نظمها شمس الدين الباعوني الدمشقي ، محمد بن أحمد المتوفى سنة 870 وبين النابلسي سبب نظمها لها في أولها فقال:

حتى إلى الغوري في الملوك ... أوصلهم مُسَيِّر السلوك
فرمت أن أفوز بالتنذيل ... لما أتوا به بلا تطويل
 وأنظم الملوك بالترتيب ... مع اختصار اللفظ والتنذيل

وتدل كتبه - رحمة الله - على اطلاع موسوعي ، وحنكة في اختيار الموضوعات وموهبة في استحضار جوانب الموضوع الذي هو بصدده ، ومهارة في تخريج القضايا ومقاييساتها لا تتأتى إلا لكتار الفقهاء ، وكل ذلك في لغة سلسلة سهلة ، لا تتعذر فيها أو إغراص .

أما تلاميذه فهو أكثر من أن يحصيهم العدد ، فقد أمد الله في عمره فمررت عليه أحجىال من طلبة العلم ، إلى جانب رحلاته في البلاد والتقائه بعدد كبير من أهل العلم وطلبه .

وللأستاذ محمد مطیع الحافظ دراسة لترجمة مخطوطة للشيخ النابلسي صنفها سبطه محمد كمال الدين الغزي بدمشق ، وينقل عنه فيها أنه تولى إفتاء السادة الحنفية في دمشق سنة 1113 ، ولكنني أستبعد ذلك لأن المرادي لم يذكر ذلك في " سلك الدرر " في ترجمته للنابلسي أو في ترجمته للمفتى السابق الشيخ إسماعيل الحايك ، إسماعيل بن علي ، المولود سنة 1046 ، بل يورد أن من تولى الإفتاء بعد الشيخ الحايك هو الشيخ أبو الصفا بن أحمد العدوي ، وأنه بقي فيه إلى حين وفاته سنة 1120 . كذلك يورد المرادي في ترجمة خليل بن أسد الصديقي الدمشقين المولود سنة 1098 ، أنه لما توفي مفتى الحنفية محمد بن إبراهيم العمادي في سنة 1135 ، انعقد إجماع أهالي دمشق على أن يصيروا مفتياً الأستاذ الشيخ عبد الغني النابلسي فذهبوا لعنه وأبرموا عليه في

ذلك فلم يرض وأبى ، فلم يزالوا يلحون عليه ويرمون جميعهم إلى أن قبلها، فكتبو العروض للدولة العلية بذلك وصار الأستاذ النابلسي يكتب على الأسئلة الفقهية ، ولكن الأخبار رجعت بورود الفتيا للصديقى ، الذي ندم على فعله مع الشيخ النابلسي ، وفي سنة 1115 أُسند إلى الشيخ النابلسي التدريس في تكية السلطان سليم المعروفة بالسليمانية ، فدرّس فيها تفسير البيضاوى مدة 28 سنة إلى وفاته ، وصنف شرحاً عليه أسماء "التحرير الحاوي بشرح تفسير البيضاوى" ، في ثلاثة مجلدات وصل فيها إلى ثلاثة سور البقرة.

وفي سنة 1125 جرى عزل النابلسي عن التدريس في السليمانية لمدة أيام ثم أعيد إليه ، وكان سبب ذلك أن شيخ الإسلام في السلطنة محمد عطاء الله أفندي كان من قبل قاضياً في دمشق وأنكر على النابلسي بعض فتاويه ، وجرت بينه وبين النابلسي مباحثة طويلة في الموضوع ، ألف النابلسي على إثرها رسالة أسمها: "السيف الماضي في عنق عطاء الله القاضي" ، فانتهز فرصة شكاية وصلته من آل المحاسنى وعزل النابلسي ، ثم عُزلَ شيخ الإسلام نفسه.

كانت دار آل النابلسي في سوق عنبر قبلي الجامع الأموي ، ثم خرج من المنطقة إلى الصالحية في سفح جبل قاسيون وبنى بها داراً في سنة 1119 ، ثم بني بها قبة سنة 1126 ليُدفن فيها عند وفاته ، ثم بني حفيده الشيخ مصطفى بن إسماعيل إلى جانب ضريحه مسجداً جاماً فخماً بمقاييس ذلك الزمان ، لا يزال قائماً معروفاً إلى يومنا هذا. وهو { جامع الشيخ عبد الغنى النابلسي } ، ومن طريف ما أورده الأستاذ الحافظ في دراسته نقاً عن سبطه الغزى أن الشيخ النابلسي كان لديه قصرٌ جمِيعه من الخشب؛ يشتمل على شبابيك وكتيبة ، وتحتة إيوان مرتفع على الأرض ، وله عزابات من الحديد تشدُّه ورُكِب بعضه على بعض ، فيُفك ويُنقل من مكان إلى مكان من البساتين وغيرها، وقد كان اصطناعه للأستاذ في سنة 1139، وقد جعل له الأستاذ تاريخاً من نظمه:

قد قيل لي إن القصور جميعها ... مبنيةٌ بحجارة تستنزل
أ يكون قصرٌ في البيوت وتارةً ... تلقاء يحوي ذاك روضٌ مقلُّ
والكل من خشب يشدُّ حديده ... أجزاءٌ فهو المخف المتنقل
فأجبت لا عجب وفي التاريخ ها ... قصرٌ يفك كما يشاء ويُنقل

واتخذ لذلك القصر بعض المحبين للأستاذ بغالاً عشرة ؛ تحمله إذا أراد السير إلى مكان من منتزهات دمشق وغيرها.

كان الشيخ عبد الغنى النابلسي ينظم الشعر بديهية ، ومن أول ما نظمه قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، المعروفة بالبيعية ولجودتها استبعد بعض أهل الأدب والعلم أن تكون من نظمه ، فاقترح عليه أن يشرحها ، فشرحها في مدة شهر شرعاً لطيفاً في مجلد، وأشعاره كثيرة مجموعة في ديوانه ومنتشرة في كثير من الكتب ، ومن طريف أشعاره ما قاله حين خرج أهل دمشق إلى صلاة الاستسقاء يستسقون فلم يُسقُوا ، وجرت الصلاة في يوم أضاف فيه السلطان مظلمة سلطانية جديدة إلى ما سبق له من أمثالها، فقال في ذلك:

خرجوا ليستسقوا الغداة فامطروا ... سُحُّ الجرائم من سما الحكم
ودعوا فحين تصعدت أنفاسهم ... رُدَّت منكسة من الآلام
ولو استقاموا في الأمور تتابعت ... نِعْمُ الإله ومنهُ الإسلام
إن السهام إذا تعوج نصلها ... عادت فأثر عودها بالرامي

ويأخذ الشعر حيزاً هاماً في مؤلفاته ، مفرداً في دواوينه ومداحنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي ثنايا كتبه في موضوعات مختلفة ، ومن مراثيه ما قاله في أخيه يوسف الذي كان معه في رحلة الحجاز فأدركه الموت فدفنه قرب رابع في آخر ذي الحجة من عام 1105 ، قال:

بكى على مفارقة الشقيق ... بدموع أحمر مثل الشقيق
أخ قد كان بي بِرَا شفِيقاً ... فوا أسفى على البر الشفيف
يرى ما لا أرى في شأن عيشي ... ويُثْعب نفسه في دفع ضيق
شفيفي يا أخي أنت ابن أمي ... رعاك الله من خل صديق

عاش الشيخ عبد الغني النابلسي 93 سنة حافلة بالتعلم والتعليم والتأليف والرحلة ، وتمتعه الله بقوته وعقله فكان يصلي النافلة من قيام ويصلِّي التراويح في داره إماماً بالناس إلى أن مات ، وتمتعه الله ببصره حتى بعد أن جاوز التسعين ، فكان يقرأ الخط الدقيق ويكتب بيده تصانيفه كشرح البيضاوي وغيره. توفي الشيخ عبد الغني النابلسي رحمه الله بعد مرض لم يمهله طويلاً وكانت له جنازة حافلة ، وغسله بيده وكفنه وأواه التراب بوصية منه الشيخ علي الوعاظ البرادعي ، علي بن أحمد البعلبي ثم الدمشقي ، المولود بيعلبك سنة 1092، المتوفى بدمشق سنة 1155 ، وكان النابلسي يحبه ويسر لقاءه ، ودفن بقبة كان قد أنشأها في أواخر سنة 1126 ، ثم بنى حفيده الشيخ مصطفى بن إسماعيل إلى جانب ضريحه مسجداً جاماً فخماً بمقاييس ذلك الزمان ، ولا يزال المسجد قائماً عامراً بفضل الله وتوفيقه. ومن أبرز ابناء الشيخ : ابنه الأكبر إسماعيل الذي ولد سنة 1085 وتوفي سنة 1162 ودفن بجوار والده. ومن أحفاد الشيخ فضيلة الداعية الدكتور محمد راتب النابلسي ، وإذا عرفت الأصل الباسق فقد تبين لك فضل الفرع الراهن ، أمد الله في عمره ونفع به.